من قصص هجا

٣ـ الغريق الناجي

للأستاذ كامل كيلاني

« صفحة مختارة من المخطوط المجهول النفيس الذي عثرت عليه ، ولعله مكتوب بخط صاحبه « أبي الفضل عبد الله دجين ابن ثابت » الملقب بهجا أو بخط أحد معاصريه » .

« ... منذ مائتين وألف من السنين كان « عبد الله دجين ابن ثابت » يسير خارج المدينة وقد ساد الظلام الكون ، فكاد يحجب الطريق عن العيون ، لولا بصيص ضئيل من ضياء النجوم، كانت ترسله السماء إلى الأرض ، كما يرسل الرجاء نوره إلى ظلمات النفس ، فيكشف من يأسها الحالك ، ويفتح لها طريقا نيراً تسلكه في ظلمات الحياة .

وساد الصمت وخيم السكون لولا نقيق الضفادع المرحة ، منبعثا من ضفة النهر . وجلس « عبد الله دجين » هادىء النفس مطمئنا ، برغم ما لقيه في ذلك اليوم من الكوارث والأحداث . ولولا أن بعض ما حل به من المصائب قد أصاب غيره لما وجد العزاء إلى نفسه سبيلا ، ولضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، ودارت به الأرض قائما .

تسألني ماذا لقي « دجين » من النكبات . فاعلم — حفظك الله ورعاك وسلمك من كل سوء — أن بعض الأشرار قد أحرق بيته . وأن الزمن تنكر له فاستهدفت أسرته للجوع والمرض . ولم يكد أصحابه يرون ما حل به من الملمات حتى هجروه وابتعدوا عنه بعد أن كانوا يتوددون إليه ويلتمسون معونته . وانقبضت أيديهم عنه بعد انبساطها ، فلم تمتد إليه بالمساعدة يد واحد من أصدقائه وأصفيائه الذين كان يدخرهم للنوائب ويستبقيهم للشدائد ولم يكن ينقصه شيء ليكون أتعس خلق الله إنسانا .

ولولا عطف جارته « زبيدة » المحسنة على زوجه وولديه لهلكوا جوعا ، ولكن الله لطف بهم فسخرها لهم لتتعهدهم في أيام النحس والشقاء .

وقد لقي « دجين » تلك الخطوب والنكبات باسم الثغر وضاح الجبين ، مملوء القلب بنور اليقين . ولعلك تدهش إذا قلت لك إنه كان يشعر في تلك الليلة بطمأنينة وثقة لا حد لها .

وكانت الضفادع قد سكتت حين رأته قادما عليها ، فلما استقر به الجلوس على ضفة النهر ، عاودتها الشجاعة ، فأنست به واطمأنت إليه ، وأقبلت عليه وقد استولت عليها البهجة فراحت تقفز في الفضاء وترفع أصواتها بما تملكه من قبيح الغناء .

وأحس « أبو الفضل » صوت جسم يسقط في الماء ، وسمع استغاثة خافتة ضعيفة تنبعث في أثر الصوت طالبة النجدة والغوث .

فخف « دجين » إلى النهر ، واندفع إلى مكان الغريق حتى إذا داناه ، أسرع اليه ، فألقى بنفسه إلى الماء في غير تردد ولا وجل ، وما زال يسبح جاهدا حتى عثرت يداه بطرف ثوب فأمسك به وجذبه إليه ، وما زال به حتى أنقذ صاحبه من الغرق وحمله إلى الشاطىء .

وما كاد يتأمل وجه ذلك التاعس المشرف على الغرق ، بعد أن كتب الله سلامته على يديه ، حتى أبصر شيخا زرى الهيئة مغمى عليه . وما لبث الشيخ أن أفاق من غشيته فشخص إلى « دجين » بعينين صغيرتين يظللهما حاجبان كثيفان ، ثم قال له بصوت متهدج يكاد يختنق من البكاء :

« شكرا لك يا أخي ، على ما أسديته إلي من صنيع ، لقد خاطرت بحياتك لتنقذ حياتي ولولا ذلك لكان الهلاك نصيبي .

على أنني لا أدري — على التحقيق — أجميلا صنعت معي أم قبيحا ؟ ولا أعلم اليقين من أمري : أخيراً صنعت بي أم شراً ؟ »

فقال « دجين » : « أكنت تقصد عامدا إلى إغراق نفسك هذه الليلة ؟ »

فقال الشيخ : « أستغفر الله ! ذلك ما لا يدور ببال عاقل كريم ! لقد زلت قدمي وأنا أمشي على الجسر فهويت إلى النهر ، وخانني التيار في ظلام الليل الحالك ، فكنت لولاك من الغرقين »

فقال « دجين » : فما بالك تندم على نجاتك ، ولا تحمد الله على سلامتك ؟ »

فقال الشيخ في أسلوب حزين يفيض مرارة واكتئابا : الحمد لله على كل حال ! فإن كل ما ينالنا من خير أو شر مقدر

علينا لا حيلة لنا فى دفعه ، ولا سلطان لنا عليه » قال « دجين » « فما يحزنك من الدنيا ؟ »

قال الشيخ : « مثل لنفسك شيخا مثلى مات أسرته جميعا : زوجه وأولاده وبناته وإخوته وعشيرته ، وأقاربه الأدنون والأبعدون ، فأصبح فى شيخوخته يعيش بلا أسرة ، ولا يجد فى العالم كله قلبا يهفو إليه أو يعطف عليه ، ولا يظفر بمورد يعيش منه ، وقد حمل من أعباء السنين سبعين . كيف يكون شعور مثل هذا الرجل الفانى إذا هيأت له المصادفة أن يفرق ، ثم كتبت له السلامة مرة أخرى ؟ أتراه يسعد بذلك أم يشقى ؟ وهل يبتهج باسترداد حياته ؟ أم يأسف لخلاصه ونجاته ؟ إن للفتى والشاب — من أمثالك — آمالا كباراً يسعيان إلى تحقيقها والظفر بها فإذا بلغا ما بلغت من السنين وذرف (أى : زاد) على السبعين فأى أمل يبقى لهما فى الحياة ، وأى مطلب يسعيان له ويتمنيانه ؟

فقال « دجين » يناجى نفسه فى صوت خافت : « ما بال هذا الشيخ يستنكر البقاء ويلعن الحياة ! »

وكان سمع الشيخ مرهفاً ، فلم تفلت منه تلك الهمسة ، فقال لدجين قولة الواثق المتثبت مما يقول : « كلا — ياصاحبى — لا تسىء ظنك بى فما أنا بمبغض للبقاء ولا كاره للحياة ! كلا لا أستنكرها كما ظننت ، ولا ألعنها كما توهمت ! بل أنا أحتقر من يفعل ذلك أشد الإحتقار . وقد عشت طول حياتى مؤمنا بالله مستسلما لقضائه وقدره ، مفوضاً أمرى له . يقبض روحى متى اقتضت إرادته ذلك . ولم يمنعنى ذلك عن السعى فى مناكب الأرض فى طلب الرزق . ولكنها تأوه محزون ، وكلمة حمقاء سبقت إلى لسانى فنطق بها فى ساعة يأس ، دون أن يتدبر عقلى مغزاها ، أو يتثبت فكرى من معناها !

ثم أطرق الشيخ ، وكأنه خجل مما فاه به لسانه من كلمات الخور والضعف فطأطأ رأسه برهة . ولكن « دجينا » قطع صمته عليه حين سأله :

« من الرجل ؟ » فقال : « أنا لعلع بن دعدع » وكنيتى « أبو شمشع » . فخبرنى أنت ما بالك منفردا فى مثل هذا الوقت وفى مثل هذه الصحراء الموحشة ؟ وما بالك تؤثر العزلة والانفراد فى ظلام الليل ، كأنما تفر من أبناء جنسك ! ولئن صحت فراستى فما أنت بسعيد فى حياتك قط » . فقال « دجين » : « كلا — يا صاحبى — فإن السعادة لم تفارق نفسى قط ، وما أذكر أنى شعرت بالتعاسة يوما واحدا طول عمرى ، على كثرة ما أصابنى من المحن والمصائب والآلام ؛ فإن الحزن والسرور — فيما أرى — يتعاقبان على الإنسان كما يتعاقب عليه الليل والنهار .

ولو أردنا أن نستديم السرور أو الحزن لعجزنا عن ذلك كما يعجز من يحاول أن يستديم الليل أو النهار . ألا ترى كيف تتعاقب علينا الفصول الأربعة فى أثناء السنة : فتمر بنا صيفا يتلوه خريف ، وشتاء يتلوه ربيع ؟

كذلك يتعاقب علينا الحزن والفرح ، والانقباض والانبساط ، واليأس والرجاء ، والشدة والرخاء ، والعسر واليسر ، والفقر والغنى ، والظلمة والنور ، والمرض والصحة » .

فقال الشيخ : « ما سمعت فى كلامى أحسن من حديثك ، ولا أحكم من رأيك . ولئن صح ظنى ليكونن لك شأن عظيم فى حياتك وبعد مماتك . فمن تكون أيها السيد الكريم ؟ » .

فقال : « أنا عبد الله دجين بن ثابت » ، وكنيتى : أبو الفضل ، ولقبى : جحا » .

فقال لعلع : « وما صناعتك ؟ »

فقال دجين : « كنت بالأمس ، تاجرا كبيرا يشار إليه بالبنان ، ولكن حريقا شب فى بيتى ومخزنى — منذ أيام — أتى على كل ماأملك من أثاث وبضائع ، فلم يبق لى — مما ملكت — كثيرا ولا قليلا . ولقد تداركنا الله بلطفه ورحمته ، فسلم كل من فى الدار : سلمت زوجى وولدى وابنتى . فشكرا لله على لطفه بنا . ولقد كدنا نهلك جوعا لولا جارتنا الكريمة التى مدت إلينا يد المعونة ، وتكفلت بإطعام زوجى وولدى .

أما الجانى الذى أوقد النار فى بيتى ومخزنى فقد فر ، ولم يقف له أحد على أثر :

فقال الشيخ لعلع : « لقد أنستنى مصائبك — ياأبا الفضل — كل ما لقيت فى حياتى من أحداث وآلام . ثم ارتعش جسم الشيخ ، فقال وهو يصرف نابه[1] : « كيف تكون الدنيا

(١) أى يحك ضرسه فيسمع له صوت .

إذا خلت من أهل المساعدة والمون من كرام المحسنين » .

فظن « دجين » أن الشيخ يرتجف مثله ألما ، لالتصاق ثيابهما المبللة بأعضاء جسميهما . وحسبه يستجديه المعونة فقال : « دعنا من حديث الأحزان ، فليس منه فائدة ، وسينقضي وقت الشدة — إذا صبرنا لها — ثم يعقبها وقت الرخاء ، فتنسينا بهجته جميع ما كابدناه من مصائب وآلام ، ومتى صبر الإنسان لجهد نازلة أصابته ، ووطن نفسه على احتمالها وابتسم للكرارث والنكبات غير هياب ولا وجل ، لم تلبث أن تنجلي عنه ويساها كما نسي غيرها من المصائب والآلام . والعاقل هو من يرضى بأحكام القضاء ، فلا يستسلم للضعف ، واثقا أن لكل شدة مدة ثم ينقضي معها ، فإذا صمد لها غلبها وانتصر عليها . ثم صمت قليلا ، واستأنف حديثه قائلا : هلم يا أبا شمشع فانبعني إلى داري فإنك واجد فيها — على ضيقها — مكانا تأوي إليه ، وسنحضر لك بعض الحشائش والأعشاب توقدها لتجفف ثيابك المبتلة . فأطرق « لعلع » لحظة ، ثم قال لدجين « قبلت ضيافتك ، يا أبا النصن ، ولعل الله — سبحانه — يوفقني ذات يوم إلى أداء هذا الدين الجميل إليك » .

فقال « دجين » : « إن في صنع المعروف لذة يتضاءل أمامها كل جزاء مهما عظم ، وتصغر بالقياس إليها كل مكافأة مهما جلت . وحسبي سرورا أن يمكنني الله من القيام بواجب الضيافة ، دون نظر إلى جزاء أو شكر .

إن خير ما يكافأ به المحسن — ياسيدي — هو شعوره بأنه أدى واجبه ، وفرحه بقدرته على فعل الجميل ، وحسب الطيب مكافأة له أنه طيب . هلم فاعتمد ذراعي واتكيء عليها لتساعدك على السير » .

فقال « لعلع » : « ما أبعد نظرك ، وأحكم رأيك ، وأصدق نيتك ، وأسلم طويتك ! إني لأتنبأ لك بالفوز والفلاح في الدنيا والآخرة . وسيتولى الله — سبحانه — حمايتك ، ويخلد على مر الزمان اسمك وسمعتك ، ويسخر لك الإنس والجن لمعاونتك وخدمتك ، ويجعلهم طوع مشيئتك ، ورهن إشارتك » .

ثم مشى كلاهما في ضوء النجوم المتألقة في السماء ، يلفهما ظلام الليل ، ويؤنسهما نقيق الضفادع ، ويحوطهما الله برعايته ، ويكلؤهما بعنايته .

كامل كيلاني

الحكاية الأزلية

الأستاذ إيليا أبو ماضي

[أخرج الأستاذ نجدة فتحي صفوة مدرس اللغة العربية بكلية بغداد ، الحلقة الأولى من سلسلة الشعراء المعاصرين التي اعتزم إصدارها ، وهي كتاب لطيف الحجم في (إيليا أبو ماضي والحركة الأدبية في المهجر) ألم فيه إلمامة بليغة حسنة بأدب إخواننا العرب المهاجرين إلى أمريكا ، ونوه بمزاياه وخصائصه ، ثم دل على مكانة أبي ماضي منه ، وذكر طرفاً من حياة الشاعر وطرفاً من أدبه في أسلوب بليغ وعرض مشوق . وقد ختمه بهذه القصيدة الجديدة لأبي ماضي ، كما افتتحه بمقدمة نفيسة للأستاذ وقائيل بطي عميد الصحافة العراقية في وجوب العناية بتراجم المعاصرين وتسجيل أخبارهم وآثارهم . والكتاب والمقدمة من خير النماذج لأدب العراق الحديث] .

توطئة

كان زمان ، لم يزل كائنا ... وحالة ، ما برحت باقيه

مل بنو الإنسان أطوارهم ... وبرموا بالسقم والعافيه

فاستصرخوا خالقهم واشتهوا ... لو أنه كونهم ثانيه

وبلغت أصواتهم عرشه ... في ليلة مقمرة صافيه

فقال : إني فاعل ما اشتهوا ... لعل فيه حكمة خافيه

وشاهدوه هابطاً من علٍ ... فاحتشدوا في السهل والرابيه

من القرى الكئيبة العارية ... والمدن الضاحكة الزاهيه

تألبوا من كل صوب كما ... تجتمع الأمطار في الساقيه

يسابق الصعلوك رب الغنى ... والأبلهُ البساقمةَ الداهيه

ويدفع الشيخ الشوقي عوده ... وصار مثل الرمة البالية

فتى مضى الفجر ولما تزل ... روعته في وجهه باقيه

وترجم الحسناء ممكورة ... خلابة كالروضة الحاليه

دميمة تشبه في قبحها ... مدينة مهجورة عافيه

فقال رب العرش : ماخطبكم ، ... ما بالكم صرخاتكم عاليه ؟

هل أصبحت أرضكمُ عاقرا ... أم غارت الأنجم في هاويه ؟

أم أقلع الماء فلا جدول ... وماتت الطير فلا شاديه ؟

أم فقدت أعينكم نورها ... أم غشيت أرواحكم غاشيه ؟

أين الهوى ، إن لم يكن قد قضى ... فكل جرح واجد آسيه